المحاضرة5: الحركات الاجتماعية:

هدف المحاضرة:رصد الحركات الاجتماعية العباسية ودورها في الحياة العامة.

لم تظهر الكثير من الحركات الاجتماعية في المشرق الاسلامي في العهد العباسي بفعل التحكم السياسي في الأوضاع سواء من الخلافة أو القوى المهيمنة عليها لذلك لا نجد إلّا تنظيمات قليلة كانت ضيقة الانتشار وقصيرة المدة.

أولا: حركات اللصوصية:

تعتبر حركات اللصوصية والصعلكة من الحركات الاجتماعية البارزة في التاريخ الإسلامي عامة والعباسي خاصة، وذلك للتأثيرات الكبيرة والمختلفة التي انجرّت عنها، وقد اتخذت عدة أسماء مع تشابه طبيعتها كحركة الأحداث في الشام والزعار في مصر والشطار والعيارين في العراق وهذه الاخيرة أشهر وأخطر هذه الحركات.

حركة العيارين والشطار:

1 – تعريف حركة العيارين والشطار:

هي حركة اجتماعية شعبية ظهرت فيما بين القرن الثاني الهجري وأواسط السابع الهجري في بغداد وبعض الأمصار الإسلاميةامتهنت اللصوصية والإغارة بأسلوب عنيف وفتاك بصفة جماعية وفردية، وكانت الاضطرابات السياسية والفتن المذهبية والقلاقل الاجتماعية مرتعا خصبا لهذه الحركة.

تعريف العيارين والشطار: – لغة:

– العيارون: العيار في اللغة الرجل الكثير الحركة جاء في الصحاح للغوي الجوهري (ت 398ه/1007م)" رجل عيار إذا كان كثير التطواف والحركة ذكيا، ويقال عار الرجل في القوم يضربهم مثل عاث"، والمعنى نفسه نجده في المعاجم الأخرى.

فلفظ العيار (مفرد العيارين) يطلق على الرجل النشيط المتميز بالفتوة والقوة والقسوة والغلظة.

– الشطار: الشاطر في اللغة هو الذي أعيا أهله ومؤدبه خبثا، فقد جاء في القاموس المحيط أنّ الشاطر: "من أعيى أهله خبثا وشطر عنهم شطورا وشطورة وشطارة نزح عنهم مراغما، والشطير البعيد".

إذن فالشاطر لغة هو الذي ابتعد عن عيشة أهله وأعياهم مكرا وخبثا وأعجزهم عن طلبه لفتوته وقوته.

– اصطلاحا:

يصعب إعطاء تعريف اصطلاحي دقيق للعيارين والشطار، وذلك للاختلاف الكبير في تفسير ماهية حركتهم وأفعالهم وأبعادها بين الدارسين قديما وحديثا، خاصة بين المؤرخين القدماء والمؤرخين والباحثين المحدثين، فقد رأى فيهم قدماء المؤرخين فئة مارقة مفسدة لا تبرير لأفعالها أهلكت الحرث والنسل، ورأى فيهم المؤرخون والباحثون المحدثون فئة مقهورة اجتماعيا انتفضت ضد الظلم والفقر واستئثار فئة معينة بخيرات الأمة، هذه الإشكالية التي سنجيب عنها بحول الله تعالى لاحقا في عنصر خاص.

2 – تاريخ وجذور الحركة: يجمع كثير من المؤرخين أنّ جذور الشطار والعيارين في التاريخ العربي والإسلامي تعود إلى ظاهرة الصعلكةالتي انتشرت في العصر الجاهلي، ولكنها لم تكن بالقوة والعنف الذي عرفته حركة العيارين والشطار، إضافة إلى تميزها بالطابع الفردي، إضافة إلى أنّ العيارة والشطارة أعم من الصعلكة فكل متصعلك لص وليس العكس، فلابد للمتصعلك أن يكون ذا مروءة أما الشطار والعيارون فقد احتفظوا بوسائل الصعاليك وزادوا عليها في الفتك ولم يحتفظوا بالغاية.

ولما جاء الإسلام ضعف شأن الصعلكة لأنّ الإسلام نهى عن الكسب غير الشرعي كالسرقة لهذا خفت الظاهرةفقد كانت عقوبة ذلك كبيرة في الاسلامإضافة إلى التوزيع العادل للثروة في أيام الإسلام الأولى وفريضة الزكاة التي كان لها دور فعال جدا في محاربة أوجه الفقر، (الذي كان أحد أسباب التصعلك، ونشير هنا إلى أنّه لم يكن من أسباب العيارة والشطارة) إضافة إلى الخيرات التي أفاضت بها الفتوحات الإسلامية فمن كان يمكن أن يكون صعلوكا أصبح يملك الجواري والعبيد والدور والبساتين، إضافة إلى وجود الحكومة القوية التي كانت تأخذ على يد قطاع الطرق واللصوص، ونفس الشيء نجده في العصر الأموي.

وفي العصر العباسي نجد بداية بوادر الحركة في عدة اقاليم وتمركزت بعد ذلك ببغداد.

3. – تسميات أخرى للعيارين والشطار: وهذه التسميات أطلقها عليهم بالخصوص المؤرخون والأدباء القدامى الذين رأوا فيهم فئة مارقة سافلة أرهجت المجتمع البغدادي وأفسدته ولا مبرر لأفعالها فسموا بأهل الزعارة والدعار والمقامرين والسوقة والعراةوالأوباش والرعاع والطرارينوالنطافين والسواطينوهي كلها تسميات تدل على أنّهم من سفلة الناس عملا وخلقا.

4 – العلاقة بين العيارين والشطار:

تبين لنا من خلال الشرح اللغوي للعيارين والشطار أنّه تجمع بينهما صفات كثيرة كالحركة والفتوة والقوة والانطلاق وانعدام الانضباط، فهل هما طائفتان مختلفتان أم هما مسميان لطائفة واحدة؟.

والعيارين والشطار طائفة واحدة وهما تسميتان مختلفتان لمسمى واحد، وهذا ما ذهب اليه أغلبية الباحثين من علماء الدين ومؤرخين وباحثين.

5– حقيقة الشطار والعيارين:

هي حركة مارقة فتّاكة أرهجت عامة بغداد وخاصتها دون وجود مبرر لأفعالها، وهذا الرأي يمثله أغب المؤرخين والأدباء القدماء، مستندين في ذلك على أفعال وصفات العيارين التي امتازوا بها والمخالفة للدين، والتي بجمعها تظهر لنا ملامح حركة فاسدة مهلكة أهلكت الحرث والنسل.

من ذلك أسلوب لصوصيتهم المبني على الفتك والإرهابوالشدة بحرق الممتلكات، ووصل بهم الأمر في سبيل ذلك إلى سفك الدماء وقتل الأبرياء، وقطع الطريق واخذ الغلمان والنساء علانية من الطرق حتى أصبح الناس منهم في بلاء شديد.

كما أنّ أذاهم لحق عامة الناس أكثر من خاصتهم، فعامة أهل بغداد مثلا هم من كانوا يشتغلون بالتجارة ويجوبون الأسواق والطرقات التي كانت أكثر عرضة للعيارين والشطار وليس أدل عل ذلك ما عاناه سوق الكرخ من العيارين سواء بالنهب أو الحرق.

إضافة إلى تميزهم بصفات تثبت انحراف منهجهم وعقيدتهم، من ذلك تميزهم بالعري ذلك ما نستشفه من بعض الشهادات الحية التي نقلت إلينا صفاتهم الكثيرة من بينها العري، وقد حفظ لنا

الطبري (ت 310هـ/922م) الكثير منها والمتمثلة أساسا في قصائد شعرية وصفت هؤلاء الهمج أثناء الحرب بين الأمين والمأمون (196-198هـ/812-814م) من ذلك ما نقله من شعر عمرو بن عبد الملك الوراق البغدادي (ت 200هـ/815م) الذي وصفهم في قصيدة طويلة منها:

عريان ليس بذي قميص يغدو على طلب القميص
يعدو على ذي جوشن يعمي العيون من البصيص

إضافة إلى أنّ الأموال التي كانوا ينهبونها كانت تصرف على اللهو والشرب في مخابئهم، وهم في هذا متجاهلين لكثير من أوجه الخير والإحسان كما جاءت بعض الاعترافات من العيارين والشطار أنفسهم يعترفون فيها بزيغ منهجهم وبطلانه أشهرها قصة العيار مع الإمام أحمد بن حنبل (ت 241هـ/856م) في السجن فقد أورد العلامة ابن الجوزي (ت 597هـ/1201م): "...وبإسناد عبد الله بن أحمد بن حنبل أنّه كان يقول: رحم الله أبا الهيثم فقلت من أبو الهيثم؟ فقال أبو الهيثم الحداد: لما مددت يدي إلى العقاب وأخرجت للسياط إذا أنا بإنسان يجذب ثوبي ورائي ويقول لي: تعرفني قلت لا، قال أنا أبو الهيثم العيار اللص الطرارمكتوب في ديوان أمير المؤمنين أني ضربت ثمانية عشر ألف سوط بالتفاريق وصبرت في ذلك على طاعة الشيطان لأجل الدنيا فاصبر أنت في طاعة الرحمن لأجل الدين..."، فهذا اعتراف خطير من عيار شهير بطاعة الشيطان وبانحراف منهجه.

6- صفاتهم: اجتمعت في العيارين والشطار أغلب الصفات الدنيئة والفاحشة كما ذكرنا وفي الصفات التي أطلقها عليهم المؤرخون والأدباء فلم يوصفوا إلّا بما كانوا عليه:

أ- الفسق: فقد امتازوا بارتكاب جل المنكرات والكبائر كالقتل وقطع الطريق وخطف النساء والولدان وشرب الخمر وحرق أموال الغير والسرقة والتعريوالانغماس في الفساد فلم يجنحوا عن الرذيلة حتى اللواطوالعياذ بالله.

ب- القسوة: وتظهر من أعمالهم السابقة الذكر المتمثلة أساسا في السرقة بالقوة وإهلاك الناس.

جـ- الصبر: وكان على العقاب والفواحش وليس على العبادات والعمل في سبيل الله، وقصة العيار أبي هيثم البغدادي مع الإمام أحمد بن حنبل لخير دليل على ذلك.

د- الشجاعة: إمتاز العيارون والشطار بالشجاعة الفائقة والإقدام الفريد خاصة في أوقات الحروب والنفرات، فقد كان لهم إقدام في الحرب تعجز عنه الجيوش النظامية، من ذلك ما أورده الطبري والمسعودي عن شجاعتهم في الفتنة بين الأمين والمأمون (196-198هـ/812-814م). وقد كانوا يفتخرون بما هم عليه من الشجاعة والإقدام ولهم في ذلك أقوال كثيرةهذا الافتخار الذي يظهر منه وكأنّهم على الصراط المستقيم، وهو دليل آخر على فسادهم وانحراف منهجهم وزيغ مذهبهم الذي لم تكن دوافعه لا اقتصادية ولا اجتماعية.

7 - أسباب نشوء الظاهرة:

لقد تحالفت الكثير من الأسباب الاجتماعية والسياسية والاقتصادية مما أدى إلى ظهور هذا النوع من اللصوصية المتطرفة والفتاكة المستعملة لأخطر الأساليب والطرق لتحقيق مآربها الفاسدة التي لا يبيحها لا الشرع ولا الوضع وهي:

أ- ضعف الوازع الديني: وبشكل كبير جدا جدا لدى شريحة كبيرة من المجتمع البغدادي فقد انتشرت مختلف الرذائل والفواحش كمعاقرة الخمر والنبيذ والمجاهرة بذلك، وانتشار المواخير التي كانت مرتعا خصبا للزنا، زيادة على الغناء الذي شاع بشكل رهيب، كل هذه الفواحش أدت إلى الاستهتار بإحكام الدين وأدت إلى ظهور فواحش أخرى على رأسها السرقة التي أصبحت تتم بوسائل اكبر منها إثما ألا وهي قطع السبيل والقتل.

ب- الفتن السياسية :

لقد ساعدت الفتن السياسية في المشرق على تطور هذه الحركة تطورا خطيرا، فبداية ظهورها العلني في بغداد كان أثناء الفتنة السياسية بين الخليفة مُحَمَّد الأمين وأخيه المشاقق له عبد الله المأمون (196-198هـ/812-814م)، ثم نجدها بشكل كبير وعلني في فتنة سياسية أخرى بين أهل بغداد المبايعين للخليفة المستعين والجند التركي القادم من سامراء المبايع للمعتز سنة (151هـ/768م) حيث سمح للعيارين والشطار بالدخول والتخندق مع الجند المدافع عن بغداد في الفتنتين، وأكثر من ذلك مدوا بالأسلحة وأصبحوا فرقةشبه رسمية ضمن الجند البغدادي، كل هذا ساهم في انتشارهم وقوتهم، وكان تمهيدا لنشاطهم الإجرامي الجماعي الذي ظهرا علنا في القرن الرابع الهجري واعجز السلطة عن اجتثاثه.

جـ- عدم جدية الدولة في القضاء على الظاهرة:

فزيادة على إشراك السلطة لهذه الطائفة المنحرفة في الفتن السياسية في القرن الثالث الهجري التاسع الميلادي نجدها تلجأ في القرن (4هـ/10م) في بعض الأحيان إلى مصانعتها لترتدع كما حدث مع العيار ابن حمدي البغدادي (ت 332 هـ/944م) الذي أمّنه أمير بغداد واتفق معه على أن يدفع كل شهر مبلغا معينا من المال أملا في أن يرتدع عن التلصص ببغداد ويعرف به جميع المتلصصة، ولكن هذا لم يزد إلّا في شره بما لم يسمع مثله على حد تعبير المؤرخ ابن الأثير (ت 630هـ/1234م)كما أنّ السلطة لم تستحدث أي جهاز يهتم بمثل هذه الظواهر الاجتماعية الخطيرة وبقي جهاز الشرطة الضعيف هو الموكل بمحاربتها دون التمكن من ذلك في كثير من الأحيان.

وما يثير الدهشة هو أنّ أشهر كتب الحسبة التي بين أيدينا لم تشر إلى هذه الظاهرة ولم تتطرق إليها ضمن أعمال المحتسبولا ندري إن كان هذا خارج عن أعمال المحتسب أم لقوة الظاهرة التي أعجز الحكام أمرها ولم يفد فيها حتى إخراج العسكرفما أدراك بأهل الحسبة.

8: تنظيم حركة الشطار والعيارين:

انفردت حركة الشطار والعيارين بكثير من الميزات والتنظيمات التي ميزتها عن باقي الحركات الاجتماعية التي عرفها التاريخ الإسلامي، فانحراف أفعالها لم يتأت إلّا من انحراف أسلوبها.

أ - مأواهم ومساكنهم:

لم يكن للعيارين والشطار منازل وأماكن إقامة لائقة وثابتة، فقد كانت أماكن إقامتهم الطرقات والحمامات والمساجدوالقناطروبعض المخابئ لمبيتهم الجماعي ولهوهم، إضافة إلى الأسواق والمقابر والأدغال والكهوف والمغارات والبراري لاستيعاب أعدادهم الهائلة، ويبدوا أنّ هذا راجع إلى طبيعتهم وسرائرهم الفاسدة التي لا تنزع إلى الاستقرار والتنظيم وحب التشرد والهيام، أو أنّهم لم يميلوا إلى امتلاك المنازل لطبيعة نشاطهم المبني على العيارة وكثرة الحركة وعدم الاستقرار، أو أنّهم عزفوا عن المنازل ولم يستقروا بها كي لا تأخذهم الدولة على حين غفلة، أو هناك احتمال آخر وهو أنّ بعضهم وخاصة رؤساءهم امتلكوا منازل خاصة ولكن لم تعرف لتسترهم كي لا تكبس من طرف الدولة ولذلك لم يعرف خبرها.

ب – لباسهم:

– الرأس: لم يستر العيارون و الشطار رؤوسهم إلا في فترات الحرب والنفرات، فقد كان يغطى بدواخل من الخوصسموها الخوذوكانت تحشى بالرمل والحصى لتحمي الرأس من الضربات، وعن ذلك يقول المؤرخ المسعودي (ت 364ﻫ/975م) "...وصمد نحوه خلق من العيارين وأهل السجون وكانوا يقاتلون عراة في أوساطهم التبابين الميازر، وقد اتخذوا لرؤوسهم دواخل من الخوص سموها الخوذ ودرقا من الخوص والبواريقد قيرت وحشيت بالحصى والرمل..."، وفي ذلك يقول الشاعر علي أبي طالب الاعمى البغدادي (ت 198ﻫ/813م):

خرجت هذه الحروب رجالا لا لقحطانها ولا لنزار

وعليهم مخافر الخوص تجزيهم عن البيض والتراس البواري

وكانت هذه الخوذ توضع بشكل فوضوي يجعلها تشبه أشكال مختلفة أقربها إلى شكل السفينة المعروفة بالطيارةفقد أورد الشاعر عمرو بن عبد الملك الوراق البغدادي (ت 200ﻫ/815م) ذلك بقوله:

حامل في يمينه كل يوم مطردا فوق رأسه طيارة

وهذا يعني أنها كانت توضع بالشكل الذي يجعلها حادة في مقدمة الرأس ومؤخرته بشكل طولي، ويرى الدكتور مُحَمَّد أحمد عبد المولى في هذا الوصف "الطيارة" تهكما وسخرية من العيارين والشطار في وصف خوذ رؤوسهموليس مجرد وصف فقط.

– الجزء العلوي من البدن: غطى العيارون والشطار أجسامهم في بعض الفترات خاصة الحروب بأثواب بالية من الصوف والوبر، وهذا ما نجده في وصف شعراء بغداد لهم وقد سمى الشعراء هذه الثياب البالية بجواشن الصوف من ذلك قول الشاعر علي أبي طالب الأعمى البغدادي:

خرجت هذه الحروب رجالا لا لقحطانها ولا لنزار

معشرا في جواشن الصوف يغدو ن إلى الحرب كالأسود الضواري

والجواشن جمع جوشن وهي كلمة فارسية معربة تطلق على نوع من دروع على هيئة أقمصة مصنوعة من رقائق مستطيلة من المعدن تتداخل أطرافها بعضها تحت بعض.

– الجزء الأوسط من البدن: اقتصر ستر هذا الجزء من البدن على أزرة يلفون بها وسطهم فقد ذكر المسعودي (ت 364هـ/975م): "...وصمد نحوه خلق من العيارين وأهل السجون وكانوا يقاتلون عراة في أوساطهم التبابين والميازر..."، والتبابين مفرده تبان وهو سروال صغير قيد شبر لستر العورة المغلظة، والميازر مفردها أزرة قيل هي سروال متوسط يصل إلى الركبتينوقيل هي ملحفة غير مخيط وهي تذكر وتؤنث، كما وضعت على الصدر أزرة خاصة لتغطيته أيضا فقد وصف الأديب الأصفهاني البغدادي (ت 356هـ/967م) في كتابه الأغاني أحد الأشخاص بقوله: "...وقد اتزر بمئزر على صدره وهي أزرة الشطار عندنا..." ويبدوا أنها كانت تطلق على السروال والملحفة في نفس الوقت.

وقد كان لباس العيارين والشطار هذا القصير على رثاثته وتمزقه يظهر عوراتهم لذلك وصفوا بالعراة هذه الصفة التي لازمتهم إلى جانب صفاتهم المنحطة الأخرى.

– القدمان: لم نجد في ما بين أيدينا من مصادر ومراجع ما يشير إلى ما انتعله العيارون والشطار، فلم يشر إلى نعالهم وفي نفس الوقت لم يوصفوا بالحفاة، ولا ندري إن كان هذا راجع إلى طبيعة الشوارع التي لم تستدع انتعال النعال لمثل هذه الفئة، أم أنّ المؤرخين والشعراء شغلتهم صفات العيارين والشطار القبيحة وألبستهم البسيطة وغير الساترة للعورة عن الاهتمام بإقدامهم.

ج – سلاحهم: استعمل العيارون والشطار أثناء النفرات أسلحة غريبة غرابة أفكارهم ولباسهم وقد كانت على النحو الآتي:

– المطرد: وهو رمح قصير للطعن كان يحمل باليد اليمنى وإضافة إلى هذا المطرد كانوا يحملون الأعمدة الحديدية لاستخدامها في الضرب أيضا.

– المقلاع: وهو أداة تستعمل لقذف الحجارة على الخصم.

وكانت الحجارة توضع في مخلاة تحت الإبط، وهذه الحجارة لم تكن صغيرة أو خفيفة وإنما كانت كبيرة ثقيلة على حد تعبير المؤرخ ابن تغري بردي الاتابكي (ت 874هـ/1467م)وكان هذا المقلاع أهم أسلحة العيارين في الحرب حيث يستعمل للدفاع والهجوم من مسافة بعيدة، دون التصادم المباشر

مما يجنبهم مواجهة الفرسان وحاملي الرماح، وقد اشتهروا بالمهارة في استعماله ودقة تصويب الحجارة به.

– البارية: وهي حصير منسوج من الحلفاء والقصب وما شاكلهما ومطلية بالقار كترس لتحمي من السهام وكانت تطلى بالقار وتحشى بالحصى والرمل.

– السكين: وهو أشهر ما امتازوا بحمله لخفة وزنه وسهولة استعماله وستره، حيث كان السلاح الأكثر استعمالا عندهم في الأوقات العادية، حيث كان يستعمل للتهديد أثناء عمليات النهب والسرقة.

هذه هي أشهر الأسلحة التي استعمالها العيارون والشطار باجتهاد وتدبير منهم، كما وفرت لهم السلطة التي تحالفوا معها بعض الأسلحة الأخرى كما حدث سنة (251هـ/867م) أثناء دفاعهم عن بغداد ضد الجند التركي القادم من سامراء حيث أعطيت لهم أسلحة للدفاع عرفت بالكافر كوبات وجعل فيها مسامير لمواجهة الجند التركي.

د – شاراتهم: تميز العيارون والشطار بشارات غريبة، فقد كانوا يدخلون ساحات القتال بعلامات غريبة هي:

– الجلاجلوالصوف الأحمر والأصفر: وكانوا يضعونها في أعناقهم، وفي ذلك يقول المسعودي: "...وناس عراة قد جعل في أعناقهم الجلاجل والصوف الأحمر والأصفر..."، ولم نجد فيما بين أيدينا من مصادر معنى هذه الشارة لدى هؤلاء، ويبدو أن هذه العادة الغريبة قد ادخلوها من مواطنهم الأصلية بناء على ما ذكرناه بدليله سابقا بأنّ اغلبهم من أجناس عديدة من غير العرب، وأغلبها كانت إلى ذلك الوقت ابعد ما تكون عن التمدن، فكيف يعقل لشخص أن يضع في عنقه جرسا تشبها بالدواب، وفيما يخص اللون الأصفر والأحمر فيعزوا الدكتور مُحَمَّد أحمد عبد المولى ذلك إلى تأثرهم برهبان البوذية، بانيا فكرته على أساس أنّ قسما كبيرا من العيارين والشطار من أهل السند والهند وهي موطن هذه الديانة التي حسبه رهبانها يرتدون اللونين الأصفر والأحمر.

– بوقات القصب وقرون البقر: ويستعملونها للنفير والترهيب لما تصدره من اصوات مرتفعة ومرعبة.

– أعلام الخرق: وهي رايات يتشبهون بها بالجند النظامي صاحب الرايات والأعلام المعلومة الشكل واللون، وأعلامهم هذه من أقمشة بالية ممزقة (الخرق)، ولا نجد كذلك في ما بين أيدينا من مصادر ومراجع ما يشير إلى لون هذه الرايات البالية، مما يوحي إلى أن هدف هؤلاء السفلة كان التشبه بالجند النظامي أكثر منه وضع علامة بارزة ومميزة، أو أن تميزها كان في قدمها وتمزقها أي في طبيعتها أكثر من لونها، فاللون هو أهم ما يميز الراية قديما وحديثا.

هـ – تنظيمهم الحربي: إختلف تنظيم العيارين والشطار العسكري القيادي حسب الأوضاع السياسية.

– في فترات السلم: تهيكل الشطار والعيارون في فترات الإستقرار السياسي تحت قيادة واحدة أو مجموعة قيادات مستقلة دون مراتب متدرجة أو قوانين مضبوطة، وكان لكل زعيم محلة معينة يسيطر عليها ويخضع له أتباعه فيها، هذا ما نستشفه من بعض الأحداث كقصة ابن حمدي العيار البغدادي الشهير (ت 332ﻫ/944م) الذي كان يسيطر على بغداد وعياروها وشطارها طوع أمره، فيذكر المؤرخ الصولي البغدادي الذي عايش هذا العيار (ت 335ﻫ/947م): "...فكان يرسل أصحابه على الناس فلهم في كل يوم حادثة عظيمة وكبس وإغارة على الأموال..." ويقوا المؤرخ بن الأثير في حوادث سنة (332ﻫ/944م): "...وكثرت الكبسات من اللصوص في الليل والنهار من أصحاب ابن حمدي..."، فقد اشتهر أمره وسطوته حتى هادنه كاتب بغداد ابن شيرزاد الموكل من طرف أمير الأمراء ابن توزون واصطنعه كي يرتدع، والرواية الفريدة ذات الدلائل والعبر الغزيرة التي أوردها أبو حيان التوحيدي البغدادي (ت نحو400ﻫ/1010م) عن القاضي أبي حامد المروزي البغدادي (ت 362ﻫ/973م) في قوله: "...انظر إلى فضل ومرعوش وهما من سقط الناس وسفلتهم كيف لهج الناس بهما وبالتعصب لهما حتى صار جميع من في بغداد إما مرعوشيا أو فضليا، ولقد اجتاز ابن معروفوهو على قضاء القضاة بباب الطاق فتعلق بعض هؤلاء المجان بلجام بغلته وقال: أيها القاضي عرفنا أنت مرعوشي ام فضلي؟ فتحير وعرف ما تحت هذه الكلمة من السفه والفتنة وأنّ التخلص بالجواب الرقيق أجدى عليه من العنف والخرق وإظهار السطوة فالتفت إلى الحراني وكان معه وهو من الشهود فقال: يا أبا القاسم نحن في محلة من؟ قال: في محلة مرعوش، فقال ابن معروف: كذلك نحن عافاك الله من أصحاب محلتنا لا نختار على اختيارهم ولا نتميز فيهم، فقال العيار: امش أيها القاضي في ستر الله مثلك من تعصب للجيران".

فانظر إلى قوله: "...حتى صار جميع من في بغداد إما مرعوشيا أو فضليا..." الذي يتبين منه أنّ هذين العيارين صارا رأس عياري بغداد، وأكيد أنّ شروط الزعامة في هذه الجماعات المنحرفة هي نفسها شروط قيادة الجماعات الإجرامية المتمثلة أساسا في أكثرهم فحشا وانتهاكا للمحرمات وأشدهم قسوة وإجراما وفتكا.

– في أوقات الحروب: أشهر النفرات التي اشترك فيها العيارون والشطار هي الفتنة السياسية بين الأمين والمأمون ما بين (196– 198ﻫ/812– 814م)، وفتنة أهل بغداد مع الجند التركي سنة (251ﻫ/867م)، وفيهما نجد بعض التنظيم العسكري الذي اتخذه هؤلاء لدخول هذه المواجهات حيث نظّموا نظام الجندغير أنّه لدينا نص فريدفي ما بين أيدينا من مصادر يصف التنظيم والتشكيل العسكري للعيارين والشطار وهو في نهاية القرن (2ﻫ/8م)، إضافة إلى أنّه موجز وهو عند المؤرخ المسعودي البغدادي (ت 364ﻫ/975م) الذي يبين ذلك في بداية الفتنة بين الخليفتين الأمين والمأمون موردا: "...وصمد نحوه خلق من العيارين...على كل عشرة منهم عريف، وعلى كل عشرة عرفاء نقيب، وعلى كل عشرة نقباء قائد، وعلى كل عشرة قواد أمير، ولكل ذي مرتبة من المركوب على مقدار ما تحت يده..." وبعملية حسابية بسيطة من هذا النص الفريد عند المسعودي يتضح لنا أنّ عددهم في الفيلق الواحد يصل إلى عشرة آلاف، وفي فتنة سنة (251ﻫ/867م) التي كانت بين أهل بغداد والجند التركي القادم من سامراء نجد تنظيما مخالفا لهذا التنظيم الذي وضعت فيه عدة قيادات، حيث جعل عليهم قائد واحد وهذا ما أشار إليه الطبري: "...وأمر...أن يفرض من العيارين فرض وأن يجعل عليهم عريف..." ويذكر في موضع آخر عن نفس الفتنة: "...فوافاها العيارون من كل جانب فقسم ذلك فيهم و أثبت أسماءهم و رأّس العيارون عليهم رجلا يدعى ينتويه...".

و– قتالهم: بعد أخذهم بالعدة التي ذكرناها يتأهب العيارون للقتال في شجاعة كبيرة، وأول ما كانوا يقومون به ضد خصومهم هو القيام بحركات ماجنة منحطة، كما يقومون بشتم وسب وتجريح أعدائهم والتشويش عليهم والإستهزاء بهم لزعزعتهم، وإذا بدأ القتال يدخلونه كالأسود الضواري بالرغم من بساطة سلاحهم وقوة خصومهم فيصف ذلك علي أبي طالب الأعمى بقوله:

خرجت هذه الحروب رجالا لا لقحطانها ولا لنزار
معشرا في جواشن الصوف يغدو ن إلى الحرب كالأسود الضواري

ومن النثر ما أورده الطبري والمسعودي عن صورة قتال الشطار والعيارين وشجاعتهم الفائقة وقد مدحوا أنفسهم بذلك على لسان أحد العياريناالشعراء منهم:

لنا من طاهر يـوم عظيم الشأن والخطب
أتاه كل طــرار ولص كان ذا نقب
إذا ما حل من شرق أتيناه من الغــرب

إضافة إلى أنّهم كانوا يخرجون للقتال في غاية الفخر والاعتزاز بأنفسهم، فكان العريف يأتي وأمامه عشرة من المقاتلة وعلى رؤوسهم خوذ الخوص والبواري، ويأتي النقيب والقائد والأمير على هذا النحو، فتتعجب العامة من حربهم على بساطة عدتهم مع الفرسان المدرعين وحاملي الرماح، فهؤلاء عراة وخصومهم في غاية العدةوالعدد.

فكل هذه الشهادات من أعدائهم ومن أنفسهم تبين مدى ما تميزوا به من الجرأة والإقدام والشجاعة.

ز– أعدادهم: يظهر من تتبع أخبار العيارين والشطار أنّهم كانوا من الكثرة حتى اهلكوا بغداد وأهلها، حيث مثلوا نسبة كبيرة من عامة بغداد وذلك ما نستنتجه من كثير من المصادر والمراجع التاريخية التي تطرقت إلى الظاهرة، وقبل التطرق إلى محاولة حصر أعدادهم نبين أولا تعداد أهل بغداد في أوج عمرانها.

بلغت بغداد أوج عمرانها في عهد الخليفة السابع عبد الله المأمونبن هارون الرشيد (198-218هـ/815-832م) حيث قدر جرجي زيدان في كتابه "تاريخ التمدن الاسلامي" عدد سكان بغداد في عهد هذا الخليفة بـ 1.5 مليون نسمة، بناء على عملية حسابية قام بها اعتمادا على عدد حماماتها ومساجدها ومختلف مرافقها، وبعد المأمون فقدت بغداد شيئا من نضارتها وعمرانها مما أدى إلى تراجع عدد سكانها ولكن بنسبة قليلة، فقد بقي سكانها مرتفعا حيث يذكر العلامة المؤرخ الطبري البغدادي (ت 310هـ/922م) في حوادث سنة (255هـ/869م) أنّ مقدار ما عبر الجسرين ببغداد مائة ألف من العامة فقط، فما بالك بمن لم يعبروا من العامة وغيرهم.

وإذا جئنا إلى عدد الشطار والعيارين فإنّهم على كثرتهم يصعب حصرهم وتقديرهم، كونهم لم يلتزموا بالتنظيم المحكم الذي يسهل إحصاءهم، إضافة إلى أنّ ما ذكر في عددهم كان في بداية القرن

(3ه/9م)، أثناء التطرق إليهم في خضم الفتنة السياسية بين الأمين والمأمون (196–198ه/813–815م) التي ذكر فيها المؤرخ المسعودي (346ه/957م) تنظيمهم شبه العسكري حيث وصل عددهم في فيلق واحد إلعشرة آلاف عيار وشاطر، ويذكر في موضع آخر أنّهم أقبلوا في إحدى وقائع الفتنة المذكورة في خمسين ألف، ويورد في موقعة أخرى أنهم ثاروا في مائة ألف، وهذا العدد الأخير يصعب تصديقه، ولكن مهما كانت المبالغة فيه فإنّه يعطينا صورة عن كثرة هذه الفئة الفاسدة في المجتمع البغدادي عند بداية القرن (3ه/9م) التي كانت فيها الخلافة العباسية في أوج قوتها، فما أدراك أثناء ضعفها وغلبة المتغلبين عليها خاصة في القرن (4ه/10)، وبالرغم من صعوبة إحصاء نسبة العيارين والشطار في المجتمع البغدادي فإنّه يمكننا القول بأنهم كانوا من الكثرة ما سمح لهم بالظهور وفرض أنفسهم كفئة اجتماعية يحسب لها ألف حساب، وأنّهم كانوا من الكثرة إلى درجة إذا تحركوا ببغداد أهلكوا.

9- مظاهرها:

أ- المظاهر السياسية:

بالرغم من أنّ هذه الحركة كانت حركة اجتماعية وغلبت على أفعالها الظاهرة الاجتماعية إلّا أنّ أفعالها تجلت في كثير من المظاهر السياسية وأبرز ما يجسد دورها السياسي هو أن ظهورها العلني لأول مرة كان أثناء الفتنة السياسية بين الأخوين المتناحرين الأمين و المأمون وابرز مظاهرها السياسية هي:

- المشاركة في الفتن السياسية والوقائع العسكرية: فقد شارك العيارون والشطار في كثير من النفرات السياسية والعسكرية ليس كعنصر ثانوي هامشي وإنّما كعنصر فعال أبرزها الفتنة المذكورة بين الأمين والمأمون(196-198ه/811-813م) التي ساهموا فيها مساهمة كبيرة إلى جانب الخليفة الأمين وألحقوا هزائم عديدة بجند المأمون (198-218ه/813-832م) المحاصر لبغداد كوقعة قصر صالح التي أثخن فيها العيارون والشطار في جند طاهر بن الحسين والتي قال عنها الطبري: "...ولم تكن وقعة قبلها ولا بعدها أشد على طاهر وأصحابه منها ولا أكثر قتيلا وجريحا معقورا من أصحاب طاهر من تلك الوقعة..."ووقعة درب الحجارة التي كانت لهم أيضا والتي حفظها الشاعر عمرو الوراق البغدادي (ت200ه/815م):

وقعة السبت يوم درب الحجارة قطعت قطعة من ا لناظرة
قدم الشورى حين للقتل عمدا قال أين لكم أريد الإمارة
فتلقاه كل لص مريب عمر السجن دهره بالشطارة

والفتنة الثانية التي شاركوا فيها هي فتنة سنة (251هـ/867م) التي كانت بين أهل بغداد إلى جانب الخليفة المستعين (248 -252 هـ/862-867م) ضد الجند التركي القادم من سمراء والمبايع للخليفة المعتز(252-255هـ/866-869م) التي أعطوا فيها السلاح وانتظموا تحت قيادة منهم.

كما شاركوا في فتن مذهبية وسياسية أخري كان وقعها اقل من المذكورة كخروجهم مع أحد القادة العسكريين وهو الحسن الهرش الذي دعا إلى العلويين فاتبعوه، وكان ذلك سنة (198هـ/813م)، ولكن هذه الحركة لم تثبت أمام ضربات جنود المأمون وفشلت بعد مدة وجيزة في المحرم من سنة (199هـ/814م).

إضافة إلى اشتراكهم في محاربة حركة الزنج، التي ظهرت سنة (256هـ/870م) وناهضت الخلافة العباسية العداء، حيث استعانة بهم الدولة لثالث مرة، وكل هذا لما تميزوا به من شجاعة عسكرية واندفاع في الحروب إضافة إلى انخفاض تكاليف تجنيدهم ويسر جمعهم لكثرتهم.

- التنظيم السياسي والعسكري: وكان ذلك بشكل خاص أثناء الاضطرابات العسكرية المذكورة والذي كان من أبرز (التنظيم) مظاهرهم السياسية والعسكرية، فقد انتظموا أثناء النفرات المذكورة في نظام خاص شبيه بنظام الجند إلى حد كبير حتى يخيل أنّهم فرقة نظامية، ففي أثناء الفتنة بين الأمين والمأمون كان تنظيمهم على الشكل الآتي على ما ذكره المسعودي: "...على كل عشرة منهم عريف، وعلى كل عشرة عرفاء نقيب وعلى كل عشرة نقباء قائد، وعلى كل عشرة قواد أمير...".

كما أنّهم تهيكلوا في تنظيم خاص أثناء فتنة سنة (251هـ/867م) بين الجند التركي القادم من سامراء المبايع للمعتز وأهل بغداد المبايعين للمستعين حيث انتظموا وعينوا عليهم قائدا منهم، وذلك لتنظيم جهدهم وتمييزهم عن الفرق التي كانوا يتحالفون معها، ونفس التنظيم نجده في فتنة الزنج (256-270هـ/870-884م) حيث قادهم قائد عرف بجعلان العيار.

– التنظيم الحركي: فبالرغم مما امتاز به الشطار و العيارون من الفوضى والانطلاق والخروج عن تقاليد المجتمع في كل النواحي خاصة الاجتماعية إلّا أنّهم تميزوا بشيء من التنظيم السياسي لحركتهم فقد كانوا ينتمون إلى زعامات معينة، فقد كان لكل قائد محلة معينة كما كان الشأن مع العيار البغدادي ابن حمدي (332ﻫ/944م) الذي كان زعيم عياري وشطار بغداد فيقول عنه المؤرخ الصولي البغدادي (ت 335ﻫ/974م): "... فكان يرسل أصحابه على الناس فلهم في كل يوم حادثة عظيمة ..."، ويذكر عنه المؤرخ ابن الأثير أيضا في حوادث سنة (332ﻫ/944م): "...وكثرت الكيسات من اللصوص في الليل والنهار من أصحاب ابن حمدي..." وقد كانت هذه التبعية للزعيم فيها من التعصب والشدة ما بلغ إلى إذاية الناس في سبيلها زيادة على ما فيها من السفة، وليس أدل علي هذا ما رواه الأديب أبو حيان التوحيدي البغدادي (ت نحو400ﻫ/1010م)، عن القاضي أبي حامد المروزي البغدادي الشافعي (ت 362ﻫ/973م) في قصة فضل ومرعوش مع القاضي ابن معروف، والتي يظهر فيها مدى تمسكهم بزعمائهم وقادتهم إلى درجة تجرئهم على العلماء فما أدراك بعامة الناس الذين لا يملكون الدفاع عن أنفسهم حتى بجميل المقال، وكما بينا سابقا فإن هذه القيادة والزعامة كانت تعود إلى الأكثر تطبيقا لجرائم العيارة والشطارة.

– التعامل مع بعض رجال الدولة : فقد استطاع بعض قادة العيارين والشطار الذين ذاع صيتهم واشتهر شرهم وعجزت الدولة عن قطع فسادهم أن يحظوا باهتمام رجال السلطة، وكان هدف السلطة من هذا التعامل هو الحد من شرهم ومعرفة أشهر مجرميهم وهذا ما يشبه شراء الذمة بعد أن فشلت اغلب الوسائل الردعية وعجزت الشرطة عن اجتثاث شرهم، كما حدث مع العيار ابن حمدي (332ﻫ/944م) الذي هادنه كاتب بغداد ومتولي أمورها عن أمير الأمراء وهو شيرزاد الذي أمّنه أملا في أن يرتدع وينتهي عن جرائمه ويعرف منه كل العيارين المهلكينوهذا من ضعف الدولة وسوء تدبيرها بعد عجزها عن القضاء عن شرذمة من المفسدين، فكيف يعقل أن تصانع المجرمين وتتعامل معهم، حتى عقّب ابن الأثير بقوله عن هذه الواقعة: "...وهذا ما لم يسمع بمثلة..."، فكان يجب عليها بدل ذلك الاجتهاد في اجتثاث أوصالهم وقطع دابرهم.

والمشكلة هي أنّ بداية التعامل لا تعود إلى مثل هذه الحادثة وإنّما تعود إلى الفتن السياسية التي ذكرناها كالفتنة بين الأمين والمأمون وفتنة المعتز مع المستعين وثورة الزنج والتي استعانت فيها الدولة بهؤلاء وتعاملت معهم وأمدتهم بالسلاح دون أن تجني من هذا التعامل إلّا الخسران المبين، فبغداد

سقطت في أيدي المأمون ثم المعتز ولم يفلح دفاع العيارين عنها، كما أنّ دابر ثورة الزنج لم يقض عليه إلّا خروج اخو الخليفة الموفق بالله الذي قضى عليها، كما أنّ مشاركتهم في الفتن لم تزد بغداد إلّا دمارا.

ب- المظاهر الاجتماعية:

وهي لب وجوهر الحركة فتجلياتها الاجتماعية هي التي سمحت لها بالاشتهار سياسيا وتمثلت في الآتي:

- السرقة: وهي أبرز أعمالهم وأكثرها وبها عرفواواشتهروا فقد كانت صفة اللصوصية من أبرز الصفات المرادفة للعيارة والشطارة لأنّها كانت أكثر أعمالهم شيوعا، كما عرّفوا هم أنفسهم باللصوص كما جاء في قصة العيار ابن الهيثم مع أحمد بن حنبل ﷺ الذي وصف نفسه بأنّه: "... العيار اللص الطرار ..."، كما افرد بعض المؤرخين والادباء فصولا في كتبهم عن اللصوص واللصوصية تكلموا فيها وقصدوا العيارين والشطار كما هو الشأن مع ابن الجوزي البغدادي (ت 597ھ/1201م) في كتابه "الأذكياء"والقاضي أبي الحسن التنوخي البغدادي (ت 384ھ/994م) الذي افرد في كتابه الفرج بعد الشدة فصلا عن اللصوص قصد به العيارين والشطار مباشرة، كما أنّ السرقة هي عملهم الأول الذي بفضله اشتهروا وتهيكلوا بعدما كثروا ودخلوا من بعده الأعمال العسكرية إلى جانب الدولة، وهذا واضح جلي في قصصهم والأشعار التي تناولتهم من ذلك ما أشار إليه الشاعر البغدادي عمرو الوراق (ت 200ھ/815م) في خضم نظمه في الفتنة السياسية بين الأمين والمأمون السالفة الذكر:

قدم الشورجين للقتل عمدا قال إني لكم أريد الإمارة
فتلقاه كل لص مريب عمر السجن دهره بالشطارة

فيظهر لنا من قول الشاعر البغدادي المعايش لهذه الأحداث أنّ العيارين والشطار قبل هذه الفتنة أي أثناء قوة الخلافةمارسوا أهم أعمالهم وهي السرقة وكانت عقوبتهم السجن لمدة طويلة، كما نجد عند تتبع أخبارهم أنّ أبرز ما يقومون به هو السرقة خاصة في القرن (4ھ/10م) حيث تفشي أمرهم وزاد خطرهم وطوروا أساليبهم في ممارسة هذه الجريمة، فلا نجد خبرا لهم إلّا وهو مرتبط بالسرقة وأخذ أموال الناس بكل الوسائل سواء بالاحتيال والفطنة أو بالقوة هذه الأخيرة التي أصبحت هي الوسيلة الشائعة في القرن (4ھ/10م)، وكل هذا وارد في كثير من النصوص التاريخية التي على

قلتهاحملت لنا نزرا من أفعالهم وأخبارهم فيورد المؤرخ ابن الأثير (ت 630ﻫ/1233م) في حوادث (296ﻫ/909م) قائلا: "...ووقعت الفتنة والنهب...ببغداد وثار العيارون والسفلة ينهبون الدور..."، ويذكر في حوادث سنة (364ﻫ/975م): "...وسار العيارون والمفسدون فنهبوا الناس ببغداد..." ويقول فيها أيضا المؤرخ والمحدث والحافظ ابن كثير الدمشقي (ت 774ﻫ/1372م): "...وفي هذه السنة عظم البلاء بالعيارين...واخذوا أموالا كثيرة..."، ونجد عند المؤرخ ابن الجوزي البغدادي (ت 597ﻫ/1201م) في حوادث سنة (380ﻫ/990م): "...وفيها زاد أمر العيارين في جانبي بغداد مدينة السلام...وأخذت الأموال وتواترت العملات واتصلت الكبسات..."، فهكذا كلما تقدمت السنون بدولة بني العباس وانحل أمر الخلافة أكثر بتغلّب المتغلبين زاد أمر المفسدين من الشطار والعيارين الذين زاد شرهم أكثر منذ دخول عصر إمرة الأمراء (324-334ﻫ/936-946م) وعظم بعد دخول بني بويه إلى بغداد وتسلطهم عليها منذ سنة (334ﻫ/946م) وزاد النهب كما أورد ابن الجوزي، وكما هو الشأن في حوادث السنين التالية (361ﻫ/972م) و(362ﻫ/973م) وسنة (364ﻫ/975م) المذكورة، وسبب ذلك أنّ بني بويه كانوا ينصرون الشيعة على أهل السنة ويدعمونهم فكثرت بذلك الفتن المذهبية زيادة على الاضطراب السياسي والتدهور لاقتصادي والقلق الاجتماعي وهي الظروف التي كان يبحث عنها العيارون والشطار وليستغلونها لمضاعفة نشاطهم المرتكز علي النهب بكل الوسائل وهذا ما نلمسه ايضا في السنوات الأخيرة للقرن (4ﻫ/10م) كسنة (390ﻫ/1000م) التي ذكرها المؤرخ الذهبي (630ﻫ/1233م) بقوله: "...وفيها عظم أمر الشطار وأتوا بيوت الناس نهارا جهارا ووصلوا العملات وقتلوا وبدعوا وأشرف الناس بهم على أمر عظيم وقويت شو كتهم..." وعن سنة (392ﻫ/ 1002م) يقول ابن كثير: "...قوي أمر العيارين وكثرت العملات ونهبت بغداد وانتشرت الفتنة ..."، والمتأمل في قول ابن كثير هذا يري أنّه بعدما كنا نجد في السنوات السابقة الذكر المصطلحات التالية: "ينهبون الدور" "نهبوا الناس" " أخذت الأموال " نجد هذه السنة قوله: " ونهبت بغداد " وهذا يعني ويفهم منه أنّ خطر العيارين والشطار قد عظم وانتشر حتى عم جانبي بغداد شرقها وغربها.

- العري: وعدم ستر أجسادهم جيدا، وهي من أبرز صفاتهم الاجتماعية أيضا وقد بيّنا طرفا من لباسهم حسب ما توفر لنا من مصادر، وما نضيفه هنا لا يزيد عن إسقاط هذه الصفة في إطارها الاجتماعي، فكثير ما أطلق عليهم المؤرخون صفة العراةوكانوا لا يتحرجون من ذلك، وما كانوا

يلبسونه في بعض الأحيان من لباس لم يكن ليستر أجسامهم، وأكيد أنّ الناس وعامة أهل بغداد قد تحرجوا من ذلك أشد الحرج، لما فيه من مجانبة للتعاليم الدينية وإخلال بالقيم الاجتماعية.

– القتل والخطف: والقتل من أكبر الكبائر وهو أعظم من السرقة والتعري وإنّما ذكرناه ثالثا كونه لم يشتهر عن العيارين والشطار وإنّما كان وسيلة لتحقيق غاية أعظم عند هؤلاء وهي الحصول على الأموال، وإن كانت قوة وهمجية العيارين والشطار قد تطورت عبر الوقت حتى أرهجوا بغداد عند النهاية القرن (4هـ/10م) فإنّ هذه الكبيرة قد مارسوها واستعملوها منذ بداية ظهورهم أي عند بداية القرن (3هـ/9م) وربما قبل ذلك ولكن عدم وجود ذكر لهم قبل هذا القرن حال دون توثيق ذلك فلا نجد ذكرها في ما بين أيدنا من مصادر إلّا سنة (201هـ/817م) التي أورد فيها الطبري (310هـ/922م) مايلي: "...وفي هذه السنة تجردت المطوعة للنكير على الفساق ببغداد...كان السبب في ذلك أنّ فساق الحربية والشطار الذين كانوا ا ببغداد والكرخ آذوا الناس أذى شديدا، وأظهروا الفسق وقطعوا الطريق وأخذوا الغلمان والنساء علانية من الطرق فكانوا يجتمعون فيأتون الرجل فيأخذون ابنه فيذهبون به فلا يقدر أن يتمنع عليهم،...ويقطعون الطرق علانية..." ومن ذلك ما أورده القاضي التنوخي البغدادي (ت 384هـ/944م) في كتابه الفرج بعد الشدة في خضم حديثه عن أحد قادة شرطة بغداد: "...وتقلد بعد ذلك الشرطة...بحث عن أحد القتلة العيارين فوجدته سكران عليه سراويل فقط وفي يده سكين مخضب بالدم وهو يقول: أخ عليك والك نعم يا سيدي أنا جرحته...وإن مات فأنا قتلته فأنزلته مكتوفا وبعثت به..." ويصف المؤرخ ابن كثير (ت 774 هـ/1372م) أوضاع بغداد في سنة (384هـ/944م) بقوله: " فيها عظم الخطب بأمر العيارين وعاثوا ببغداد فسادا، وأخذوا الأموال...ليلا ونهارا وأحرقوا مواضع كثيرة ...وتطلبهم الشرط فلم يفد ذلك شيئا ولا فكروا في الدولة، بل استمروا على ما هم عليه من أخذ الأموال، وقتل الرجال، وإرعاب النساء والأطفال في سائر المحال..." ويذكر الذهبي في حوادث سنة (392هـ/1002م) ما يبين ممارستهم لهذه الفعلة الشنيعة المهلكة وأنها كانت شائعة في أكثرهم: "...وفيها عظم أمر الشطار...وواصلو العملات وقتلوا وبدعوا..." وهذا ما يبين مدي دناءة أعمالهم وإهلاكهم لأموال الناس وأرواحهم.

– التجرؤ على الخاصة: فكانوا لا يحترمون ولا يوقرون أحدا فزيادة علي النهب والسرقة والعري وعدم احترام أعراف الناس تجرؤوا على العلماء والصالحين غير مبالين بمكانتهم الدينية

والدنيوية، ودون توقير لهم، وهذا ما نستنتجه من بعض الوقائع كالقصة التي رواها الأديب أبو حيان التوحيدي البغدادي (400هـ/1010م) التي يظهر منها مدى تجرؤ هؤلاء السفهاء على احد العلماء إلى درجة شد لجام دابته وتهديده وهي واقع العيارين فضل ومرعوش مع القاضي ابن معروف، كما يمكن القول بأنّ خاصة القوم من العلماء وأهل الصلاح لم يسلموا من نهب العيارين والشطار أيضا، فأبو حيان التوحيدي نفسه صاحب هذه القصة كان هدفا لهم ولم يسلم منهم حيث اعتدوا على منزله وأخذوا ما وجدوا فيه وجردوا السكاكين على جاريته يطالبونها بالمال فأرعبوها حتى توفيت، ولم يتركوا له شيئا، فعّقب على ذلك بقوله: "...وأمسيت وما أملك مع الشيطان فجره ولا مع الغراب نقره"،وإذا أخذنا بالاعتبار أنّ جل علماء بغداد وأهل الصلاح فيها كانوا يعيشون مع العامة ولا يتميزون عنهم إلا بعلمهم فأكيد أنهم تأذوا بشكل كبير من هذه الفئة الفاسدة، وما القصتان المذكورتان إلّا نزر قليل مما عاناه أهل الصلاح من العيارين والشطار حتى إن لم تتطرق إليهم المصادر بشكل خاص، لأنّها أوردت الحوادث بشكل عام متطرقة لعامة أهل بغداد دون تمييز.

- شرب المسكر: وإن كانت هذه الرذيلة شائعةفي بغداد في القرنين (3-4هـ/9-10م) وخاصة القرن (4هـ/10م) وما تالاه من القرون، ورغم كل ما تميزوا به من دناءة وانتهاك لمعظم المحرمات كالقتل والخطف والسرقة فإننا لا نجد ما يشير إلى شربها علنا والسير بها في الطرقات أو التنقل في حالة السكر، ويبدوا أنّ هذا لا يرجع إلى احترامهم لمشاعر الناس او التزاما بالتقاليد أو خوفا من السلطة، وإنّما يعود إلى طبيعة وطريقة نشاطهم وعملهم (اللصوصية بكل الوسائل) التي تفرض عليهم أن يكونوا في كامل قواهم الجسمية والعقلية وترك المسكر إلى فترات الراحة في المخابئ.

ومن كل هذا الذي ذكرناه يظهر لنا مدى فساد هذه الحركة من الناحية الاجتماعية ومدى الأذى الذي ألحقته ببغداد وأهلها، وإن كانت هذه المظاهر قليلة من ناحية الشكل فهي عظيمة من ناحية الجوهر فهل هناك أعظم من القتل والخطف والسرقة بكل الأشكال وإذاء العلماء والصالحين و شرب الخمر.

جـ- المظاهر الاقتصادية:

كانت في كثير من الأحيان انعكاسات للمظاهر السياسية والاجتماعية وتجلت في المظاهر التالية:

– إفساد الممتلكات: وهذا أكبر ما عاناه أهل بغداد خاصة تجارها من هذه العصابات الدنيئة فما كان ينجوا من نهبهم يتعرض للحرق الذي كان وسيلة العيارين والشطار المحببة لسهولة فعله وفعاليته في إتلاف أموال الناس، وأبرز موضع في بغداد كان عرضة لهذا الفعل الشنيع هو سوق الكرخ قلبها النابض وموطن أكثر التجاروفيه أكثر مال بغداد، يذكر ابن الأثير في حوادث سنة (361هـ/973م): "...وفي هذه السنة ظهر العيارون واظهروا الفساد وأخذو الأموال...فنهبت الأموال وقتل الرجال وأحرقت الدور وفي جملة ما احترق محلة الكرخ..."وفي النجوم الزاهرة في حوادث سنة (364هـ/976م): "...فيها من المحرم أوقع العيارون ببغداد حريقا...فاحترق أغلب هذا السوق وهلك شيء كثير..."، ويورد الذهبي في حوادث سنة (379هـ/989م): "...فيها والتي تليها استفحل البلاء وعظم الخطب ببغداد بأمر العيارين وصاروا حزبين...ونهبت أموال الناس...وأحرق بعضهم دروب بعض فانّا لله وإنّا إليه راجعون"، فقد كانت الأسواق الأكثر تعرضا للحرق من طرف العيارين عندما يتم مقاومتهم ومحاربتهم من طرف أهلها فيلجؤون إلى حرقها كي يكثر اللغط والهرج ويسهل نهبها.

– فرض الضرائب: وهذا من أدل الأمور على انحلال أمر الخلافة وضعف الدولة وزوال هيبتها أن يتمكن الرعاع والمجرمون من فرض الضرائب على الناس بالقوة، وكأنّهم ملوك بغير تيجانوقد فشي هذا الأمر في بغداد بعد القرن 2هـ خاصة أثناء الفتن وانشغال السلطة فيقول الطبري في حوادث سنة (201هـ/817م): "...إنّ فساق الحربية والشطار الذين كانوا في بغداد أذوا الناس أذى شديدا...وكانوا يجوبون المارة في الطرق وفي السفن وعلى الظهر ويخفرون البساتين..." وفيما بين أيدينا من مصادر كثير مما يدل على هذاوأبرزه ما أورده ابن الجوزي عن العيار عزيز البغدادي في حوادث سنة (384هـ/994م): "...وظهر العيار المعروف بعزيز من باب البصرة واستفحل أمره والتحق به كثير من الزعار وطرح النار في المحال وطلب أصحاب الشرط ثم صالح أصحاب الكرخ وقصد سوق التمارين وطلب بضرائب الأمتعة وجبى ارتفاع الأسعار الباقية وكاشف السلطان وأصحابه ونادي فيهم وكان ينزل إلى السفن ويطالب بالضرائب...، فهو في هذا يظهر كأنّه صاحب السلطة ومسير الأمور وما أوصله إلى هذا إلّا ضعف الدولة وتخاذل الحكام.

ثانيا: حركة المطوعة ببغداد:

وهي حركة مناهضة للحركة السابقة ولمختلف المفاسد حيث سعت إلى إصلاح الأمور المنفلتة من لصوصية وغصب أغراض الناس وانتشار العيارين ومختلف المنكرات والقيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وهو شعارهم فبادر الصلحاء من كل حي الى السعي إلى وقف ذلك سنة (201هـ/817م) وكانوا يقولون: "يا قوم إنّما في كلّ درب فاسق واثنان إلى عشرة، وعددكم بعد أكثر فلو اجتمعتم حتّى يكون أمركم واحدا لقمعتم هؤلاء الفسّاق..." وأول من قاد ذلك بشكل منظم خالد الدرويش الذي دعا جيرانه الى معاونته على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ومجابهة الفساق الذين آذوا الناس أذى شديدا، وأظهروا الفسق وقطع الطريق وأخذ الغلمان والنساء علانية من الطرق وغيرها من المنكرات الرهيبة في حق العامة فتمكن من ذلك مع اعترافه بسلطة الخليفة حيث اوقف اعتداءات العيارين والشطار مدة نشاطه ومنهم سهل بن سلامة الذي علّق مصحفا في عنقه ودعا الى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وتطبيق تعاليم الشريعة وكل ذلك في فترة غياب المأمون عن بغداد بخراسان (عاد سنة 204هـ/820م) فتبعه خلق كثير فاستطاع القضاء على العديد من المنكرات.

وأحمد بن نصر الخزاعي الذي قاد حركة قوية للنكير على العقائد الفاسدة والمنكرات المتفشية كاللصوصية والافساد وترويع الناس سنة (231هـ/846م) كادت تسقط الخلافة بعد بايعه الناس على ذلك ونظمت الدعوة له في بغداد كاملة ولكن فشلت حركته بعد كشفها في مهدها فالقي عليه القبض فقتله الخليفة الواثق في نفس السنة (231هـ/846م).

العبر والعظات:

- وجوب الاهتمام بالجانب الديني التربوي لأهميته في صقل أخلاق الناس وإبعادهم عن التيارات المنحرفة.
- وجوب عدم التساهل اطلاقا مع الانحرافات الاجتماعية مهما كان دافعها، بوأدها في مهدها حتى لا تستشري وينتشر خطرها بين الناس.
- يجب على الدولة إعطاء اهتمام بالغ للأحوال الاجتماعية وضبطها بنفسها ضبطا يفرض هيبة الدولة ويحفظ حقوق الناس.

- الامر بالمعروف والنهي عن المنكر باليد يكون لمن بيده سلطة وليس لكل الناس حتى لا تشيع الفوضى وتذهب هيبة الدولة، وتحدث مناكير أعظم من الاولى.